الفصل الرابع

إن أكبر جهاز شعبيٍّ عانى في عصر «عبد الناصر» و«السادات» و«مبارك» هو الصحافة، وستظل صحافتنا تعاني لفترة طويلة؛ لأنها «اتمرمغت» في الوحل.

يوسف إدريس

obeikandl.com

١٩٨٠

العيب

(١)

كتب المصور «فاروق إبراهيم» خطابًا إلى الرئيس «السادات»، وذهب إلى قصر الرئاسة، وسلم خطابه إلى أحد المسؤولين.

ولم يكن الخطاب يحوي سوى كلمات قليلة مفادها: «أتمنى أن تسمح لي أن أسجل يومًا في حياة سيادتك بالكاميرا فقط.. توقيع: فاروق إبراهيم». قرأ الرئيس الخطاب، وابتسم، ووافق على الفكرة.

واستدعى «السادات» المصور «فاروق إبراهيم»، وأبلغه بموافقته على فكرته، واتفقا على أن تكون البداية من صباح اليوم التالي، ليسجل «فاروق» بكاميرته يومًا في حياة الرئيس منذ بدايته.

وذهب «فاروق» حاملًا الكاميرا، والأفلام، والعدسات، ودخل إلى القصر، وجلس ينتظر الرئيس، لينزل.

لكن السادات طلب من الحرس أن يصعدوا بالمصوِّر إلى غرفة نومه ليلتقط صورته، وهو في فراشه بالبيجامة، وصعد «فاروق» وصوَّر الرئيس في سريره.

وقبل أن يدخل إلى الحمام لحلاقة ذقنه، استأذن «فاروق» لينصرف، ويجلس في الأسفل؛ لكن «السادات» قال له: «لو عايز تسجل اليوم بتاعي صح.. يبقى لازم تصورني وأنا باحلق دقني.. أنا يومي بيبتدي كده»!

ووقف الرئيس أمام المرآة في الحمام ممسكًا بماكينة الحلاقة، ومرتديًا ملابسه الداخلية البيضاء، ليحلق ذقنه، ويمشِّط شعره، ويقص الزوائد من شاربه.

وكانت عدسة «فاروق إبراهيم» جاهزة، تلتقط صورًا غير مألوفة للرئيس، ونزلا معًا، وأكملا رحلة تصوير الرئيس مع زوجته، وأبنائه، وأصدقائه، ووزرائه، وكبار الكتاب والصحفيين، وفي أثناء ركوبه الدراجة مع حفيده، وممارسته اليوجا، ونومه على الأرض.

وعاد «فاروق إبراهيم» إلى جريدة «أخبار اليوم» منتشيًا بما حقق من سبق صحفي، واتجه مباشرة إلى مكتب رئيس التحرير «إبراهيم سِعدة» واتفقا على نشر بعض هذه الصور في الصفحة الأولى لأخبار اليوم في الباب الجديد المسمَّى «قصة صورة».

ولم يكن حينها قد مرَّ سوى ثلاثة أشهر على تصعيد «إبراهيم سِعدة» لرئاسة تحرير «أخبار اليوم»، وقرر كتابة الموضوع بنفسه ثم استأذن الرئيس «السادات» في ذلك فرحَّب على الفور.

وبمجرد أن نُشرت الصور، قامت الدنيا ولم تقعد!

فقد اعترض عدد من مستشاري الرئيس على نشر هذه الصور، وقال بعضهم إن تلك الصور خطيئة كبرى من «أخبار اليوم» ومسؤوليها.

وانتقل الهجوم إلى مرحلة أخرى، حين دخلت السيدة «جيهان السادات» على الرئيس، وهو جالس بصحبة «أنيس منصور» في القناطر الخيرية،

وقالت له: «أساتذة الجامعة كلموني.. وقالوا لي: إزاي رئيس البلد يتعمل فيه كده؟!».

فرد السادات قاطعًا، وحاسمًا، ومُغلقًا باب النقاش بقوله: «أنا قرأت الموضوع.. واخترت الصور.. إنتم مابتشوفوش الصحافة العالمية؟ إنتم مابتفهموش حاجة.. هيّ دي الصحافة».

(٢)

وفي تلك الأثناء طلب الرئيس أنور السادات -وطلبات الرئيس أوامر- أن يتم سن قانون جديد يُسمّى «العيب».

وفي سرية تامة عقدت اللجنة التشريعية بمجلس الشعب برئاسة «حافظ بدوي» عدة جلسات غير محددة المكان لتمرير المشروع، وبالفعل تمت الموافقة على القانون، وخرج قانون «حماية القيم من العيب» لحيز التنفيذ في الخامس عشر من مايو.

ونصَّ القانون على أن «كل من ارتكب ما ينطوي على إنكار الشرائع السماوية أو ما يتنافى مع أحكامها، إما تحريض النشء والشباب على الانحراف عن طريق الدعوة إلى التحلل من القيم الدينية وإما عدم الولاء للوطن، يتعرض للعقوبة، وذلك وفقًا لما نصَّت عليه المادة ١٧١ من قانون العقوبات».

وانتقدت صحف المعارضة القانون، وأطلق نواب المعارضة في البرلمان عليه اسم «قانون سيئ السمعة»، ووصف الكاتب الكبير «أحمد بهاء الدين» القانون بأنه «كارثة».

كان هذا القانون مؤشرًا قويًّا أن الرئيس السادات قرر قمع المعارضة،

ومحاصرة الحريات، واستكمال رحلة التضييق على الصحافة، فقد كان الهدف الرئيسي من القانون معاقبة كل من يحاول انتقاد سياسة الدولة.

(٣)

وفي تلك الأثناء عرض التليفزيون المصري للمرة الأولى مسلسل «زينب والعرش» للمخرج يحيى العلمي، واشترك في بطولته عدد كبير من النجوم من بينهم «محمود مرسي، وكمال الشناوي، وسهير رمزي، وحسن يوسف، وصلاح قابيل، وعبد المنعم إبراهيم».

والقصة للأديب «فتحي غانم»، والسيناريو والحوار لـ«صلاح حافظ وفتحي غانم»، ولهذا قصة طريفة.

فبعد أن قرر الرئيس «السادات» إبعاد «حافظ» و«غانم» عن رئاسة تحرير مجلة «روزاليوسف» تفرّغا لكتابة سيناريو وحوار مسلسل «زينب والعرش».

والمدهش أنهما اتفقا أن يكتب أحدهما الحلقات الفردية، والآخر يكتب الحلقات الزوجية، ولم يلاحظ أي أحد أي ثغرة في كتابة الحلقات، فالروح كانت واحدة، وكأنه أوركسترا يعزف نغمة واحدة بآلات مختلفة.

وحقق هذا المسلسل نجاحًا كبيرًا؛ خصوصًا أن أدب فتحي غانم ليس خياليًا خاليًا من الواقع، وليس واقعًا مجردًا من الخيال.

واعتبر البعض أن البطل الحقيقي لهذا العمل هو «مصطفى أمين» الذي جسّده دوره الفنان «محمود مرسي».

وبسبب هذا الخلط بين الواقع والخيال، هناك واقعة تناقلتها الأقلام وهي أن «هيكل» التقى «فتحي غانم»، وبدلًا من أن يلقي كلاهما التحية على الآخر،

قال له «غانم»: أهلًا بـ«الرجل الذي فقد ظله»، إشارةً إلى بطل روايته.
فردَّ «هيكل» غاضبًا: أهلًا بـ«الرجل الذي فقد عقله»!

(٤)

وفجأة وقعت الواقعة الأخطر خلال العام؛ لكنها لم تأخذ حقها في الصحف!

ففي يوم الجمعة ١٣ يونيو، وفي الحُجرة رقم ٩٤١ بفندق الميريديان في باريس، عُثر على جثة هامدة مُهشمة الرأس، ودماؤها تغطي سجادة الحجرة، تم اكتشاف أنها جثة العالم الدكتور «يحيى المشد»، وقد تم إغلاق التحقيق الذي قامت بها الشرطة الفرنسية على أن الفاعل مجهول.

وبعد سنوات اعترفت إسرائيل رسميًّا باغتيال العالم المصري «يحيى المشد»، من خلال فيلم تسجيلي مدته ٤٥ دقيقة، عرضته قناة «ديسكفري» الوثائقية الأمريكية تحت عنوان «غارة على المفاعل»، وتم تصويره بالتعاون مع الجيش الإسرائيلي، ويتناول الفيلم تفاصيل ضرب المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١.

وفي هذا السياق كان لا بد للفيلم من التعرض لعملية اغتيال «يحيى المشد» في الدقيقة ١٢:٢٣، باعتبارها «خطوة تأمينية ضرورية لضمان القضاء الكامل على المشروع النووي العراقي، وحتى لا يتم إعادة التفكير في إنتاج مفاعل نووي عراقي في المستقبل.

(٥)

وفي هذا التوقيت قرر الرئيس «السادات» أن يُصدر جريدة جديدة تكون ناطقة بلسان الحزب الوطني، واختار لها اسم «مايو» لتخليد ذكرى ما جرى في ١٥ مايو حين أطاح برجال «جمال عبد الناصر».

وقد كان لتلك الجريدة مكانة خاصة في قلب الرئيس، فقد كان يريدها أن تتصدر المشهد، وتصبح مناطحة لـ«لأهرام» و«أخبار اليوم».

ولعل أبرز دليل على ذلك أنه كان مساهمًا فيها بماله، فقد كانت قائمة الأعضاء المؤسسين تضم «أنور السادات، وحسني مبارك، وعثمان أحمد عثمان»، وتبرع كل واحد منهم بمبلغ رمزي قدره مئة جنيه مصري.

وساهم أيضًا في تأسيس الجريدة عدد من الصحفيين من بينهم «إبراهيم سِعدة» رئيس تحريرها، الذي تبرع بألفي جنيه، هذا بجانب عدد من البنوك المصرية، ومنها بنك مصر، والبنك الأهلي، وبنك الإسكندرية، وبنك القاهرة.

وصدر العدد الأول من جريدة «مايو» في ٢٤ صفحة، وطُبع منها نصف مليون نسخة، وقيل إن توزيعها لم يتجاوز عشرة آلاف نسخة طوال تاريخها.

١٩٨١

خريف الغضب

(١)

في شهر أبريل، اصطحب «أنيس منصور» رئيس تحرير مجلة «أكتوبر» ٧٠ محررًا ومحررة إلى قرية «ميت أبو الكوم» للقاء الرئيس «السادات».

واستهل «أنيس منصور» اللقاء قائلًا: «يا سيادة الرئيس أقدم لك أحفادك، فهؤلاء هم أبناء مجلة أكتوبر، إحدى بنات أفكارك، أي أحفادك»، وابتسم «السادات»، ورحب بالمحررين قائلًا: «طبعًا.. طبعًا.. اتكلموا يا أولادي».

وتكلم مدير تحرير المجلة نيابةً عن زملائه قائلًا: «عاوزين يا ريس مجلة أكتوبر تبقى دار صحفية مستقلة عن دار المعارف مثل (الأهرام) و(أخبار اليوم)».

وقاطع الرئيس «السادات»، مدير التحرير، وعلق قائلًا: «أنتم عاوزين صحافة مدرسة مصطفى وعلي أمين في (أخبار اليوم) اللي بتقولّك تدخل على الوزير تضرب بابه برجليك زيّ ما بيحصل في (واشنطن بوست) في أمريكا.. الكلام ده في أمريكا.. ودي مدرسة لامؤاخذة ماتنفعش

obeikandl.com

عندنا.. وصحافة مصر مش زيّ صحافة أمريكا».

(٢)

وبعد أشهر قليلة صدر قرار بمصادرة جريدة «الشعب» الناطقة بلسان حزب «العمل»، ومجلة «الدعوة» لسان حال جماعة «الإخوان».

وأصدر الرئيس السادات قرارًا بنقل ٦٧ صحفيًّا من صحفهم إلى العمل ببعض المصالح الحكومية.

وفي اليوم التالي، الخميس، الثالث من سبتمبر، عاد زوار الفجر، بعد أن وقَّع الرئيس على قائمة باعتقال ١٥٣٦ شخصًا من قادة الفكر والأدب والسياسيين ورجال الدين من معارضيه، وقد قام وزير الداخلية النبوي إسماعيل بتنفيذ أوامر الرئيس.

وكان من بينهم الأستاذ «محمد حسنين هيكل»، ورئيس حزب الوفد «فؤاد سراج الدين»، والدكتورة «عواطف عبد الرحمن»، والدكتور «ميلاد حنا»، والشيخ «حافظ سلامة»، والكاتبة الصحفية «صافيناز كاظم»، و«شاهندة مقلد»، و«حمدين صباحي»، و«عبد المنعم أبو الفتوح».

خلال تلك الأحداث تذكر «فؤاد سراج الدين» واقعة حدثت قبل أكثر من ثلاثين عامًا، وذلك حين ارتكب ضابط صغير مخالفةً كبيرة، كانت تستوجب التحقيق معه وطرده من الخدمة وربما حبسه، لكنه عفا عن الضابط، وقال له في مكتبه: «أنا هاعتبرها غلطة ومش هتتكرر.. عشان ماضيّعش مستقبلك».

ومرت ثلاثون عامًا، وكبر الضابط الصغير، وصار وزيرًا للداخلية، وقام باعتقال «فؤاد باشا سراج الدين».

فقد كان الضابط الصغير هو «النبوي إسماعيل» وزير داخلية «السادات»!

وبعد ٢٤ ساعة من حملة الاعتقالات الكبرى، أصدر الرئيس قرارًا آخر بإقالة «البابا شنودة»، وعزله من منصبه، ونفيه في دير وادي النطرون، واتهمه بتحريض الأقباط على العصيان عند توقيع اتفاق السلام بين مصر وإسرائيل؛ إذ أصدر «البابا شنودة» مرسومًا بمنع حج الأقباط إلى القدس، واتهمه أيضًا بالتحريض على تظاهرات حدثت في أثناء زيارة السادات للولايات المتحدة منذ عام.

(٣)

وفي اليوم التالي، وقف «السادات» أمام مجلس الشعب، وألقى بيانًا إلى الأمة، جاء فيه: «إن هناك فئة من الشعب تحاول إحداث الفتنة الطائفية، وإن الحكومة حاولت نصح تلك الفئة أكثر من مرة، وإن الآونة الأخيرة شهدت أحداثًا هددت وحدة الوطن، واستغلتها تلك الفئة، وسلكت سبيل العنف وتهديد الآمنين، وحاولت تصعيد الأحداث، الأمر الذي استلزم إعمال المادة ٧٤ من الدستور، والتي تنص على أن لرئيس الجمهورية إذا قام خطر يهدد الوحدة الوطنية أو سلامة الوطن أو يعوق مؤسسات الدولة عن أداء دورها الدستوري أن يتخذ الإجراءات السريعة لمواجهة هذا الخطر».

وتابع «السادات» خطابه قائلًا: «وبناءً عليه تقرر حل بعض الجمعيات التي هددت سلامة الوطن، وإلغاء تراخيص بعض الصحف والمطبوعات مع التحفظ على أموالها ومقراتها، ونقل بعض أعضاء هيئة

التدريس والجامعات والمعاهد العليا، الذين لهم تأثير ضارّ في تكوين الرأي العام، ونقل بعض الصحفيين وغيرهم من العاملين في المؤسسات الصحفية القومية، وبعض العاملين في اتحاد الإذاعة والتليفزيون والمجلس الأعلى للثقافة».

(٤)

وبعد ثلاثين يومًا من تلك الواقعة، وتحديدًا في يوم السادس من أكتوبر، كان الرئيس «السادات» وإلى يمينه نائبه «محمد حسني مبارك»، ثم الوزير العماني «شبيب بن تيمور» مبعوث السلطان «قابوس»، وإلى يساره المشير «عبد الحليم أبو غزالة» وزير الدفاع، ثم «سيد مرعي»، ثم «عبد الرحمن بيصار»، شيخ الأزهر.

وكانوا جميعًا يشاهدون العرض العسكري، وينظرون إلى طائرات «الفانتوم» وهي تمارس ألعابًا بهلوانية في السماء، ثم انطلق صوت المذيع الداخلي «الآن تجيء المدفعية».

وتقدم قائد طابور المدفعية لتحية المنصة، وحوله عدد من راكبي الدراجات النارية، وفجأة توقفت إحدى الدّراجات بعد أن أُصيبت بعطل مفاجئ، ونزل قائدها وراح يدفعها أمامه، لكن سرعان ما انزلقت قدَمه، ووقع على الأرض، والدّراجة فوقه فتدخّل جندي كان واقفًا إلى جوار المنصة، وأسعفه بقليل من الماء.

وفي تمام الثانية عشرة وعشرين دقيقة، كانت سيارة الضابط «خالد الإسلامبولي» تجرّ المدفع الكوري الصنع عيار ١٣٠مم، وقد أصبحت أمام المنصة تمامًا ووقفت، وظنّ الجميع أنها تعطلت هي الأخرى.

وفي لحظات وقف القناص «حسين عباس» وأطلق دفعة من الطلقات، نحو الرئيس «السادات»، ونزل «الإسلامبولي» من سيارته، وتحت ستار الدخان وجّه «الإسلامبولي» دفعة طلقات جديدة نحو المنصة، وألقى قنبلة، ثم جاء «عطا طايل» وأطلق عشر طلقات على الصف الأمامي الذي يجلس فيه «السادات».

وسقط الرئيس على الأرض مضرجًا في دمائه، بينما اختفى جميع الحضور أسفل كراسيّهم.

لكنَّ شخصًا وحيدًا لم يجرِ، ولم يهرب، ولم يختبئ في تلك اللحظة، بل أظهر شجاعة نادرة، ولافتة؛ إنه مصور «أخبار اليوم»، «مكرم جاد الكريم» فقد أمسك بالكاميرا، ورصد لحظة اغتيال الرئيس، وأطلق عدسته صوب القتلة، والتقطهم.

وحققت «أخبار اليوم» سبقًا صحفيًّا عالميًّا في هذا اليوم، وبيعت تلك الصور -التي كان يمكن أن تكلِّف المصور حياته- بمئات الآلاف من الدولارات لوكالات الأنباء العالمية.

(٥)

وخرجت صحف اليوم التالي مُتشحة بالسواد تقول:

- **السادات شهيدًا يوم انتصاره**
- **طلقات غادرة وآثمة اغتالته بين جنوده وأبطاله**
- **إعلان حالة الطوارئ لمدة سنة**
- **صوفي أبو طالب رئيسًا مؤقتًا للجمهورية**
- **المكتب السياسي للحزب الوطني.. بالإجماع يرشح حسني**

مبارك للرئاسة

وصار «حسني مبارك» رئيسًا للجمهورية، وأرسل إلى المثقفين، والصحفيين، والسياسيين الذين اعتقلهم الرئيس «السادات» في سبتمبر رسالة مفادها: «إنه تقرر الإفراج عن المعتقلين السياسيين على دفعات، وإن ذلك سوف يبدأ تنفيذه بعد أربعين الرئيس السادات».

واستقبلهم «مبارك» في قصر العروبة، وكانت الدفعة الأولى تضم ٢٥ شخصًا، من بينهم الأستاذ «هيكل»، والدكتورة «نوال السعدواي»، والكاتب «فتحي رضوان»، و«فؤاد سراج الدين» الذي تحدث نيابةً عن الحاضرين، وبعد أنهى «سراج الدين» كلامه علَّق «مبارك» قائلًا: «إحنا آسفين على اللي حصل، ونتمنى نفتح صفحة جديدة، ولا نريد أن ننبش في الماضي».

obeikandl.com

١٩٨٢

مواكب المُهلِّلين

(١)

أصدر «حسني مبارك» توجيهات بعدم نشر إعلانات التهاني في الصحف، وأكد رفضه لهذه المظاهر الكاذبة التي تستنزف المال العام، وقد نشرت الصحف توجيهات الرئيس، واعتبرتها حدثًا يستحق الاحتفاء، لكنَّ إعلانات التهاني لم تتوقف!

وأعلن «مبارك» أنه لا يحب التصوير، ولا يميل إلى مواكب المهلِّلين، والمصفِّقين، ويفضِّل أن يحمل أوراقه بنفسه، وكان يقول: «مابحبّش حد يفتح لي باب العربية.. كفاية تصوير بقى، بلا هوسة».

مبارك كان حريصًا أن يظهر في صور مختلفة عمّن سبقوه، فقد كان يردد دائمًا أنه يصحو مبكرًا، ويلمِّع حذاءه بنفسه، ويرتدي بذلات صُنعت في المحلة الكبرى التي تشبه بذلات موظفي الحكومة، وأن «الكفن مالوش جيوب»!

وحين ألقى «مبارك» أول خطاباته قال: «لن أُخفي الحقيقة عن الشعب، ولن أتهاون مع الفساد والفوضى وانتهاك القانون».

وبالفعل بدأ «مبارك» في محاسبة بعض المقربين من «السادات»، فتمت محاكمة «عصمت السادات» شقيق الرئيس، وأبنائه بتهمة الفساد المالي، والتربح، والاتجار غير المشروع، وتم القبض أيضًا على «رشاد عثمان» المليونير السكندري الذي كان يقود الحزب الوطني في الإسكندرية، وهي محاكمات تحدثت عنها الصحف الحكومية باعتبارها دليلًا عمليًّا على تغير السياسات، ومحاربة الفساد.

وكانت تلك المحاكمات هي المانشيتات الرئيسية للصحف، حتى ظهرت قضية «توفيق عبد الحي» رجل الأعمال الذي اتُّهم باستيراد ٤٢٦ طنًّا من الفراخ الفاسدة، وبيعها للمصريين، علاوة على حصوله على قروض بلا ضمانات؛ لكن عندما استدعته النيابة اكتشفت هروبه إلى سويسرا.

(٢)

وفي الوقت نفسه سعى «مبارك» لإرضاء الجميع، فعندما كان يسأله الصحفيون عن توجهاته السياسية والاقتصادية، وهل سيسير على نهج «جمال عبد الناصر» أم «أنور السادات»؟ كان يجيب مبتسمًا: «أنا اسمي حسني مبارك».

واستمر في سياسة المصالحة مع السياسيين والمثقفين، ففي السابع والعشرين من أبريل أفرج عن دفعة أخرى من المعتقلين السياسيين الذين اعتقلهم الرئيس «السادات» تضم ٣٥٣ معتقلًا.

وفي هذا التوقيت حرص «مبارك» على أن يجلس مع كبار الكتاب والمثقفين ويستمع إليهم، وكانت عادته أن يلتقي معهم في الصباح الباكر في قصر العروبة، وكان من بين مَن حرص على عقد لقاءات منفردة معهم الأستاذ «محمد حسنين هيكل».

وبجانب اللقاءات أرسل «هيكل» إلى «مبارك» ست رسائل، الرسالة الأولى عنوانها «خطاب مفتوح إلى الرئيس حسني مبارك»، والثانية عنوانها «أسباب التأييد وأسباب الصمت»، والثالثة «الرأي العام في مصر غير مرتاح وغير مطمئن»، والرابعة «ملاحظات على سياسة مصر العربية»، والخامسة «العالم الذي نعيش فيه وقواه وصراعاته»، أما الرسالة الأخيرة فكان عنوانها «ما العمل؟ إذا كانت المشكلات مستحيلات، فمن يصنع المعجزات؟».

وتوقفت الخطابات...

وسافر «مبارك» إلى فرنسا، وهناك أحضر له الدكتور «بطرس غالي» منجِّمة فرنسية شهيرة في أوساط الدبلوماسيين، وقالت المنجِّمة لمبارك ضمن نبوءات أخرى كثيرة: «ستموت في السنة التي تعيِّن فيها نائبًا لك».

ويبدو أن هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل «مبارك» يرفض طيلة حكمه تعيين نائب له، وحين وافق تم خلعه، ودخل السجن!

(٣)

وفي الذكرى الأولى لرحيل «السادات» أعد «إبراهيم سِعدة» رئيس تحرير جريدة «مايو»، الناطقة بلسان الحزب الوطني، عددًا خاصًّا عن الرئيس الراحل، وتصدرت الصفحة الأولى عناوين على لسان «مبارك» تقول:

- **السادات كان عظيمًا في مصريته**
- **حياة السادات كانت سلسلة متصلة من القرارات التي غيَّرت مسار التاريخ**
- **مهما كانت المحاولات التي تسعى إلى طمس إنجازاته فإن**

الجماهير قادرة دائمًا على استجلاء الحقيقة

وقد شارك عدد من كبار الكتاب والسياسيين في هذا العدد من بينهم «صلاح منتصر، ومحمود سالم، ومحسن محمد، وصبري أبو المجد، وكمال الشاذلي».

والمدهش أن الأديب العالمي «نجيب محفوظ» كتب مقالًا جاء فيه: «بدأ السادات حكمه بأن وهب الناس الأمان بعد خوف، والطمأنينة بعد القلق، والقانون بعد العصا، وعرف المواطن أن اللسان قدرة تعبير لا مجرد آلة تسجيل للألم، وأن القلم رأيٌ لا سجن ولا قهر، وأن الإنسان كائنٌ مقدس لا فأر تجارب».

واستطرد «محفوظ» قائلًا: «ثم فاجأنا بحربٍ، ولم نكن نعرف أن الحرب تعني إلا الهزيمة، في أسبوع أو أيام أو ست ساعات، فإذا بنا نتعلم أنها يمكن أيضًا أن تكون اقتحامًا وعبورًا ونصرًا، وإذا بأمة العرب تولَد من جديد نافضةً عن جسدها المتهالك غبار الهزيمة واليأس والخمول».

واختتم «محفوظ» مقاله قائلًا: «الإنجازات أكثر من أن يحيط بها حصر، ولا أُنكر ما صاحبها من أخطاء وتناقضات، ولكن العبرة بما يبقى مما ينفع الناس لا بالزبد الذي يذهب جُفاءً، رحم الله السادات، وأنعم علينا بإتمام رسالته».

وقد كتب «أنيس منصور» مقالًا بعنوان: «الأمير سلمان يسأل السادات: ما هي غلطتك الأولى يا فخامة الرئيس؟».

وبدأ «أنيس» مقاله قائلًا: «إنه من أحجار صغيرة يتكون الهرم، ومن ذرَّات لا نهاية لها يتكون الجبل، فكذلك الشخصية الإنسانية تتكون من كلمات وأهداف، وكلما كانت الشخصية كبيرة كانت جوانبها متعددة».

واستطرد «أنيس» قائلًا: كنتُ الصحفي الوحيد الذي رافق الرئيس

السادات في مؤتمر الرياض، وعندما خرج الرئيس من أحد الاجتماعات سألني الأمير سلمان أمير الرياض -ملك السعودية فيما بعد: نريد أن نعرف من فخامة الرئيس ما هي غلطته الأولى؟

فقال السادات: غلطة إيه؟

فرد «أنيس»: في مذاكرتك المنشورة في مجلة «أكتوبر» هذا الأسبوع تقول إنك ارتكبت غلطتين في حياتك.. ثم اكتفيت بذكر واحدة.

وضحك الرئيس، ولم يقل، وأدرك الأمير سلمان أن الرئيس لا يريد أن يذكر هذه الغلطة.. أما الغلطة الثانية: فهي أنه عندما أجريت القرعة بين أعضاء مجلس قيادة الثورة على شكل الحكم فكتب كل واحد منهم ورقًا، كلهم قالوا: نريد حكمًا ديموقراطيًّا إلا السادات فكتب نريد حكمًا ديكتاتوريًّا، وغضب عبد الناصر من ذلك.

وأردف «أنيس منصور» قائلًا: أما الغلطة الأولى فقد همستُ في أُذن الأمير سلمان بها، فتغير وجه الأمير، وقال: «معه حق.. فليس من اللائق نشر شيء كهذا».

وفي رحلة العودة إلى القاهرة سأل الرئيس «السادات»، «أنيس منصور» قائلًا: «هل ذكرت للأمير سلمان الغلطة؟».

فأجاب «أنيس»: نعم.

وعادو «السادات» السؤال: «وماذا كان رأيه؟».

فأجاب «أنيس»: «قال إن الحق معك.. فليس هذا مما يقال».

١٩٨٣

حديثٌ مع الله

(١)

من دون مقدمات، وقعت معركة كبرى؛ لكنها ليست كسائر المعارك؛ لأنه قد يترتب على نتيجتها تكفير أحد طرفيها!

المعركة بدأت في الأول من مارس على صفحات جريدة «الأهرام» بسلسلة مقالات كتبها المفكر «توفيق الحكيم» على أربع حلقات بعنوان «حديثٌ مع الله».

ورفض الشيخ «الشعراوي» كل ما ورد في تلك المقالات، وقرر أن يرد على ما جاء فيها بحواره لجريدة «اللواء الإسلامي» بقوله: «لقد فتحتُ النار على هذه الحوارات لأنها دعوة للفكر والتطاول على الذات العليّة، ولو أن الدولة كانت تحتضن الدين كما احتضنت نظامًا، وفرضته لما استطاع واحد مثل هذا الكاتب أن ينال من الدين الحنيف»، ويستطرد: «إن الدين ليس له صاحب في مجتمعنا بدليل أن المنسوبين إلى الدين حينما تعرضوا لنظام الحكم سُجنوا».

وطالب «الشعراوي» بعقد ندوة تليفزيونية يحضرها هو من ناحية،

obeikandl.com

و«توفيق الحكيم، ويوسف إدريس، وزكي نجيب محمود» من ناحية أخرى، واشترط أن تكون على مسمع من المجتمع كله.

وسارع وزير الإعلام «صفوت الشريف» بالموافقة قائلًا: «إن مثل هذه الندوات تساعد على تبصير المجتمع بالقضايا الدينية».

وجاء الرد على الدعوة من الدكتور «يوسف إدريس» الذي علَّق ساخرًا: «كنت أتصور أن المتعاركين حول من الأفضل، ومن الأقوى ومن الفارس الأوحد من جمهرة المستهلكين للشِّعر أو للكتابة، أما أن يصل الأمر إلى حد أن يعتنق شاعر وكاتب هذه الفكرة، فهو ما لم يحدث أبدًا إلا من قليل جدًّا من مراهقي الشعراء أو صغارهم حينما كانوا يفعلون مثلما كنا نفعل في ثانوي أو ابتدائي، ويزعم كلٌّ منَّا أنه الأطول ويتحدى الآخرين ليثبت لهم أنه الأطول، لكن ذلك زمن ولَّى ومضى، وفي عصرنا الحديث حلَّ الجدل محل التبارز».

ودافع الشيخ «الشعراوي» عن دعوته للمناظرة قائلًا: «لقد طلبت عقد ندوة يحضرها الحكيم، وإدريس، وزكي نجيب محمود بالتحديد، وتذاع من التليفزيون لكنهم هربوا من المواجهة، إنهم مدرسة واحدة تدَّعي الاشتغال بالفكر، ولقد ضاق الشباب ذرعًا بهذا الاحتيال والتزييف والنصب، وفقدوا الثقة في كل شيء إلا حكم الله، ولقد قصدتُ في دعوتهم إلى هذه الندوة أن لا أترك لأعداء الإسلام فرصة؛ لأن يخلو واحد منهم إلى نفسه يكتب ويُعدِّل ويمحو ويُثبت، هذا معناه تحريك العقل الماكر ليمكر، وأردت أن أدخل معهم في مواجهة مباشرة حتى لا يكون لديهم الوقت ليفرغوا ما لديهم من دعاوى، فالحقائق المختمرة في النفس لا تتطلب إلا المناسبة لتبرز، أما الأمور الملفَّقة فتحتاج إلى وقت لكي تلفَّق، وآخر ما يبقى بالنفس البشرية هو الحقائق».

(٢)

وبعد أن هاجم الشيخ «الشعراوي» معارضيه بصيغة الجمع بدأ مرحلة جديدة أكثر ضراوة بهجومه على كل واحدٍ منهم بمفرده.

فقال واصفًا «الحكيم»: «عجبتُ من رجل يعتبرونه شيخ الكتّاب يعلن أنه لم يعد صالحًا لأن يكتب مسرحيات وروايات، أي أنه لا يصلح لكتابة بشر إلى بشر ثم يتسامى إلى أن يتكلم مع الإله أو يستقبل كلامًا من الإله»، وينتقل «الشعراوي» إلى الحديث عن الدكتور «زكي نجيب محمود» قائلًا: «إن كتابات الدكتور وآراءه المنشورة في الكتب المطروحة في الأسواق ليس فيها ما يدل على توبته.. أليس هو مَن قال: (مهما قال العلماء بأن حديث الذبابة صحيح فلن أصدق فإنه يصيبني بالغثيان؟)، يقول الدكتور زكي إن حديث رسول الله يصيبه بالغثيان، هذا القول بعد قوله: مهما قال العلماء، يدل على إصرارٍ منه على (....)، وهذا يعني أن هناك خطة مدبَّرة للنَّيل من الإسلام».

وينتقل الشيخ «الشعراوي» إلى معركة جانبية مع «يوسف إدريس» على صفحات جريدة «الشعب»-لسان حال جماعة الإخوان- التي جعلت صفحاتها أرضًا للمعركة.

وطرح «يوسف إدريس» في حواره مع الجريدة عدة تساؤلات منها: «كيف أن عالمًا جليلًا في هذه المكانة يسمح لنفسه أن يتهم الآخرين بالكفر وإذا كان هو فعلًا غيورًا على الإسلام، فالإسلام ينص على أنه قبل الحكم على إنسان لا بد أن يحاكَم أولًا، ونعطي له فرصة الدفاع عن نفسه،

ولكن ليس هكذا، وبشكل غيابي يُصدر حكمًا بالرِّدة أو بالارتداد عن الدين، وهي التهمة التي يعلم جيدًا الشيخ الشعراوي أن عقوبتها الإعدام في ميدان عام، وإعدام مَن؟! إعدام رؤوس كبيرة في البلد تتلمذت على أيديهم أجيال وأجيال».

ورد «الشعراوي» قائلًا: «إن الشيء الذي أُحب أن أحدده ولا أدري كيف غاب عمن يتصيد ما يأخذه على شخصي أنني لم أرمِ أحدًا بالضلال أو الإضلال أو الكفر، ولا أدري ما الذي يجعلهم يجذبوَن هذه الألفاظ إلى جهتهم».

(٣)

وفجأة أعلن «يوسف إدريس» موافقته على عمل مناظرة مع الشيخ «الشعراوي» ولكن بشروط، هي: «أولًا، أن يفسر فضيلته لماذا أخذ موقفًا مؤيدًا تمامًا لمبادرة القدس التي كانت بداية الكوارث على الأمة العربية والإسلامية، بل عمل وقتها وزيرًا للأوقاف وبعيني رأيته مع الرئيس السابق السادات يحيِّي الذين وقفوا للتهنئة بمبادرة القدس.

ثانيًا، أريد أن أناقشه في موقفه المشهور في مجلس الشعب الذي قال فيه ما معناه إن على السادات (لا يُسأل عما يفعل) فصاح به الشيخ صلاح أبو إسماعيل عضو مجلس الشعب، قائلًا (يا راجل.. هذا معناه أنك ترفع السادات إلى مراتب الألوهية)!

فقط أريد إجابة عن هذا السؤال: يعني الرئيس السادات لا يُسأل «بضم الياء»، ونحن يتم تكفيرنا دون أن نُسأل، أم لأن السادات رئيس؟!

ثالثًا، كيف تقوم حرب لبنان، ولا يجنّد فضيلة الشيخ الشعراوي نفسه

لإثارة المسلمين ضد هذه الحرب وضد المذابح؟ أنا لم أقرأ أو أسمع له كلمة واحدة هجومًا على إسرائيل ولا على المذابح، إنه يقيم ندوة كل يوم جمعة بالتليفزيون، ومع ذلك لم يقل شيئًا عنها، كان المفروض أن يخصصوا ولو ندوة واحدة، ولكن كون الشيخ الشعراوي يترك المسلمين يُذبحون ويتكلم في إعراب القرآن، لذلك لا بد من مساءلة فضيلته عن هذا وهو رجل مسؤول بقدر عدد مَن يؤمنون به، وأنا لا أُدينه، ولكن أنا فقط أضع النقاط ونتكلم حولها».

لم يكتفِ الشيخ «الشعراوي» بالمعركة مع ثلاثة من أقطاب الفكر، بل صعَّد من حملته وهاجم صحيفتي «الأهرام» و«أخبار اليوم» لوقوفهما إلى جوار خصومه، وذلك في حواره مع جريدة «الأحرار» الذي جاء فيه: «إن تلك الصحف تحولت إلى وكر لنشر الإلحاد بين الناس بإفساح صفحاتها لمقالات توفيق الحكيم الذي يتطاول على الذات الإلهية ويتهجم على منهج الله تحت ستار ما يسمونه الاجتهاد وحرية الفكر، وأنه لا إكراه في الدين»، ولا تندهش حين تعلم أن تلك المعركة قد وصلت إلى ساحات المحاكم.

فقد قام «توفيق الحكيم» بمقاضاة الشيخ «الشعراوي»، وقام الشيخ بمقاضاة جريدة «أخبار اليوم» لنشرها خبر الدعوى التي أقامها «توفيق الحكيم» ضده قبل أن تصله عريضة الدعوى، الأمر الذي يعد مخالفة قانونية ارتكبتها «أخبار اليوم» في حقه، علاوة على التحيز الواضح من «أخبار اليوم» ضده لحساب «توفيق الحكيم»-على حد قوله- والدفاع عن أفكاره الغريبة، والترويج لها بين الناس رغم مخالفتها لأبسط قواعد الإسلام.

(٤)

ولم يصمت أساتذة «علم المعارك» في «الأهرام» و«أخبار اليوم» على هجوم الشيخ «الشعراوي».

فقد أجرت «الأهرام» حوارًا مع الشيخ حول ما ذكره في حديثه مع «الأحرار» من هجوم على «الأهرام» و«أخبار اليوم».

وقام الكاتب الصحفي إبراهيم سِعدة رئيس تحرير «أخبار اليوم» بنشر مقال تحت عنوان «الشعراوي وأخبار اليوم» جاء فيه: «فضيلة الشيخ الشعراوي شن هجومًا عنيفًا على صحيفتي الأهرام وأخبار اليوم، واتهم الأهرام بأنها أصبحت وكرًا للإلحاد، واتهم أخبار اليوم بأنها استغلت القضية التي بينه وبين الأستاذ توفيق الحكيم للإساءة إليه، والتحيز إلى جانب الحكيم».

وتابع «سِعدة» قوله: «بالأمس أجرت الزميلة الأهرام حديثًا مع فضيلة الشيخ الشعراوي حول هذا الموضوع قال فيه: إنه من العسير أن أحدِّثك عن المناخ الذي حدث في لقائي مع مندوب الصحيفة -يقصد الأحرار- ولقد كنت مشحونًا عاطفيًّا بالنسبة إلى أشياء كثيرة وأنا لا أبرِّئ نفسي، ولكن فوجئت به حقيقةً وما أفزعني هو أن يُنشر ما قلتُه في صحيفة معارضة، لقد قال لي المحرر إنه قادم من أخبار اليوم».

ويستطرد «سِعدة»: «لقد أدهشني ما قاله فضيلة الشيخ الشعراوي، فالذي قرأته عنه كان جديدًا بالنسبة لي، فالمحرر الذي أجرى معه الحديث الأول، والذي نُشر في صحيفة الأحرار هو زميل يعمل معنا في

أخبار اليوم، وسعى إلى مقابلة الشيخ الشعراوي دون أن يُخطرني بذلك، وأجرى الحوار، ولم يعرضه على المسؤولين عن النشر في أخبار اليوم وقد فوجئت بنشره في صحيفة أخرى، فقد ظن أن هجوم فضيلة الشيخ الشعراوي على الأهرام وأخبار اليوم سيكون مبررًا أمامي لمنع النشر، فآثر أن ينشره في صحيفة معارضة».

ويضيف «سِعدة»: «انزعجتُ كثيرًا لما قاله الشيخ الشعراوي عن موقفي منه الذي لا يجد مبررًا له، ربما يقصد فضيلته ما نشرتْه أخبار اليوم حول الخلاف الفكري بينه وبين الحكيم في أعقاب سلسلة المقالات التي نشرتها الأهرام للحكيم بعنوان (حديث مع الله) وهي المقالات التي انتقدها فضيلة الشيخ الشعراوي، والعديد من علماء الدين، وكان الهجوم على الحكيم قاسيًا وعنيفًا، ولم تتدخل أخبار اليوم في هذه المعركة الفكرية إلا من زاوية واحدة أعتقد أن فضيلة الشيخ الشعراوي يوافقنا عليها، فنحن لم نناقش ما كتبه الحكيم، ولم نؤيد ما كتبه على لسان الله سبحانه وتعالى، وإنما كل ما فعلناه هو أننا انتقدنا الذين شنوا حملة ضارية ضد كاتبنا الكبير توفيق الحكيم، واتهموه بكل كبيرة وصغيرة، فشككوا في إيمانه وأثاروا الرأي العام ضده، وطالبنا كل طرف باحترام الآخر، ومناقشة فكره، لا الطعن في مبادئه، ومعتقداته، وإسلامه».

وتابع «سِعدة»: «كل ما قاله الزملاء في أخبار اليوم انصبّ فقط في دائرة احترام الرأي والرأي الآخر، وطالبنا بالمناقشة الموضوعية التي لا تجرح ولا تتهم ولا تنتهك الحرمات، فمن حق كل كاتب أن يكتب رأيه -فما بالك بكاتب كبير مثل الحكيم- ويعلن إيمانه بالأسلوب الذي يراه».

واختتم «سِعدة» مقاله بقوله: «هذا موقف أخبار اليوم من هذه الزوبعة التي لم تكن نحب أن تطفو أو تُثار فأخبار اليوم ليست طرفًا في النزاع بين الشعراوي والحكيم، وإنما هي طرف في أي قضية يثار فيها حق الرأي الآخر

في أن يعلن رأيه ويحدد موقفه، ويطرح وجهة نظره في حرية وموضوعية، وهو الموقف الذي أثق تمامًا أن عالمنا الكبير فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي يوافقنا عليه، ويطالبنا بالتمسك به».

وعقب نشر تلك المقالة أصدر «إبراهيم سِعدة» قرارًا بمنع العاملين في «أخبار اليوم» من العمل في صحف أخرى، ومَن يخالف القرار يتم فصله فورًا.

(٥)

وفي الخامس عشر من أبريل أُسدل الستار على هذه المعركة، وذلك حين كتب توفيق الحكيم مقالًا قصيرًا في «الأهرام» بعنوان «يا رب»، جاء فيه:

«ألهمني الصواب يا ربي.. فأنا أخشى أن أكون مخطئًا في حديثي إليك.. فلقد أنشأت في هذا الحديث علاقةً بذاتك العليّة ليست مما يستسيغه الناس بين الخالق والمخلوق، ولم يفهموا أنها مجرد مناجاة حبٍّ علويٍّ ليس مما يُفهم أو يُؤخذ بالمدلول العادي من أنه تطاوُل على الذات الإلهية، وهو ما لا يمكن أن يخطر على بال أي (مؤمن بالله ورسوله) وحسبي الله ونعم الوكيل فيمن يفهمني خطأ ورماني بالضلال دون أن ينتظر حسابك أنت يا ربي يوم الحساب، ومع ذلك ألتمس منك المغفرة لمن ظلمني ولي إن كنتُ (سهوتُ) أو (أخطأتُ) وأنت الغفور الرحيم».

وجاءت نهاية تلك المعركة الكبيرة بالنهاية السعيدة.

فقد كتب الكاتب الصحفي «صلاح منتصر» في عموده اليومي بـ«الأهرام» أن «توفيق الحكيم» كان مريضًا، ورأى الشيخ «الشعراوي»

في المنام، ورآه يربت على كتفه وذكر في نهاية عموده أن كل ما يطلبه «الحكيم» أن يزوره الشيخ في المستشفى التي نُقل إليه للعلاج، وبالفعل زاره الشيخ «الشعراوي»، وتصالحا.

obeikandl.com

١٩٨٤

للحقيقة وجوه كثيرة.. جدًّا!

(١)

«إذا لم أتكلم الآن فمتى.. وإذا لم أتكلم أنا فمن؟!»..

هكذا بدأ الأستاذ «محمد حسنين هيكل» كتابه «بين الصحافة والسياسة» الذي بمجرد أن خرج إلى النور، أقام حربًا كبرى بين القوى العظمى في صاحبة الجلالة.

الأول: هو هرم الصحافة الأكبر «مصطفى أمين».

والثاني: هو الجبل المتحرك بالوثائق «محمد حسنين هيكل».

لكن -مع الأسف- رغم كل ذلك، للمعارك قوانين أخرى تحكمها، تلك القوانين لا تعرف شيئًا اسمه الرحمة، فبمجرد أن تدخل إلى ساحة المعركة عليك أن تضع قلبك تحت قدميك ثم تنحِّي المبادئ جانبًا، ولا تفكر إلا فيما يُدين خصمك كي تبدو نجمًا أمام محكمة الرأي العام.

بمجرد أن بدأت تلك المعركة التاريخية بين أسطورتي الصحافة «مصطفى أمين» و«هيكل» كان على كلٍّ منهما أن يفتح ملفاته المغلقة، ويفتش في دفاتره القديمة، ويبحث عن أي معلومة يُدين بها الآخر

obeikandl.com

حتى ولو كانت نسبة صحتها واحد بالمئة، فعليه فقط أن يبرِّئ ساحته، فللحقيقة وجوه كثيرة، ولا توجد مُسلمات في أرض المعارك.

فـ«هيكل» عاد بذاكرته الوثائقية إلى عام ١٩٤٥ ويقول:(فور انتهاء الحرب العالمية الثانية ظهرت فجأة في طهران دار صحفية كبرى كان أبرز ملامحها دعوتها المستمرة لمجموعة قيم جديدة وطريقة جديدة في الحياة وهي «دار كيهان» المشهورة، ولم تترك الوثائق التي وُجدت في مبنى السفارة الأمريكية في طهران -حين احتلها طلبة الثورة الإسلامية في إيران- مجالًا لأحد أن يشكّ في الملابسات التي اكتنفت تأسيس الدار وظهور صحفها.. ويخطر على البال أن «أخبار اليوم» ظهرت في نفس هذه الفترة -أواخر ١٩٤٤- فهل كانت «أخبار اليوم» حلقة في هذه السلسلة؟ إن الأستاذ «مصطفى أمين» في رسالة له اعترف بأنه قابل «كيرمت روزفلت وإرشي روزفلت» لأول مرة في نفس هذه السنة.. فهل هي مصادفة أم هي أكثر؟).

واستطرد «هيكل» بقوله: (خاطرٌ آخر يطرح نفس السؤال وهو أن مراسلي «أخبار اليوم» في الخارج وقت إنشائها كانوا -كما يبدو لنا الآن- طرازًا غريبًا من الصحفيين، فكان مراسلها في نيويورك -مثلًا- هو «جوزيف ليفي» واتضح فيما بعد أنه لم يكن يهوديًّا فقط وإنما كان واحدًا من أبرز الدعاة للوكالة اليهودية المقدِّمة الأولى لحكومة إسرائيل، وكان مراسلها في لندن «جون كيمشي» والآن نعرف أنه ابن عم «دافيد كيمشي» وكيل وزارة الخارجية الإسرائيلية، ولم تكن المسافة بعيدة بين الصهيونية والسياسة الأمريكية خصوصًا بعد الحرب العالمية الثانية.. مصادفات هي أم شيء أكثر؟).

(٢)

أما «مصطفى أمين» فلم يقف صامتًا أمام هذا السيل من الاتهامات، فيقول: (ذات يوم كان «هيكل» يغطي اجتماعات جامعة الدول العربية بمدينة «بلودان» في لبنان، وعندما عاد إلى القاهرة دخل إلى مكتبي، وقال لي: سبقٌ صحفي.. حصلت على تصريحات خاصة لـ«أخبار اليوم» من رؤساء وزراء لبنان والعراق والسعودية و.. و.. و.. واعتقدت يومها أن «هيكل» صادق فيما يقول، ولهذا أمرت بتخصيص الصفحة الأولى لهذه التصريحات المهمة، وإذا بي أُفاجأ أن وكالات الأنباء تذيع نصوص رؤساء الوزراء في افتتاح جامعة الدول العربية بلبنان، وهي طِبق الأصل مما ادّعى «هيكل» أنها تصريحات خاصة حصل عليها بمفرده، فقد فبرك هذه الخطب، وأعدَّها على أنها حديث معه شخصيًّا، واكتشفتُ هذه الفضيحة، وكدتُ أفصله لولا تدخل شقيقي «علي»).

وتابع «أمين» قوله: («هيكل» ادَّعى أن «عبد الناصر» قد زاره في مكتبه في «أخبار اليوم» ليحصل على نسخة من كتابه «إيران فوق البركان» الذي أصدره قبل الثورة، والحقيقة أن «عبد الناصر» لم يَزُر «أخبار اليوم» إلا بعد الثورة، وكان سبب الزيارة المؤتمر الصحفي لقادة الثورة مع الصحفيين الأجانب، وقد حضره «عبد الناصر» ومعه كل زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة).

أما «هيكل» فيذهب للحديث عن علاقات «مصطفى أمين» قبل الثورة فيقول: (كان الأستاذ قد تعود على الاتصال بالحُكام قبل الثورة، وكان اتصاله بالقصر المَلَكي قد توثّق في أثناء توليه رئاسة تحرير مجلة «الاثنين» فقد لعب دورًا كبيرًا في الحملة على حزب الوفد، وعلى رئيسه

«مصطفى النحاس باشا» وكانت المهمة التي قام بها هي العمل على ترويج شعبيه المَلِك، فكان ضمن المجموعة التي صحبت المَلِك في رحلته للصعيد سنة ١٩٤٤ في أثناء انتشار وباء الملاريا، وكانت مجلة «الاثنين» هي التي خلعت على المَلِك فاروق أوصافًا مشهورة مثل «الوطني الأول» وحتى عام ١٩٥٢م فإن «أخبار اليوم» خرجت ذات يوم تصف المَلِك فاروق بأنه «الفدائي الأول» وبأنه تبرع للفدائيين المصريين العاملين في منطقة قناة السويس ضد الاحتلال البريطاني بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه).

ويستطرد قائلًا: (اشترك الأستاذ «مصطفى أمين» اشتراكًا فعليًّا في المناورات التي سبقت إقالة وزارة «مصطفى النحاس» في أكتوبر ١٩٤٤ وأُنعم عليه برتبة الباكوية، وفي أثناء حكم وزارات الأقلية من سنة ١٩٤٤ إلى سنة ١٩٥٠ كان الأستاذ هو الصحفي المعبِّر عن السراي واتجاهاتها).

(٣)

كان منطقيًّا أن تلاميذ «مصطفى أمين» لن يتركوه وحيدًا في مواجهة هيكل، فقد كشف الكاتب الصحفي «محسن محمد»، رئيس تحرير جريدة «الجمهورية» الأسبق، عن وثيقة سرية كانت محفوظة في دار الأرشيف الوطني في واشنطن، تتحدث عن المعلومات التي كان يقدمها «محمد حسنين هيكل»، المحرر بمجلة «آخر ساعة» حينذاك، إلى السفارة الأمريكية بالقاهرة عن أسرار السياسة المصرية، والاتصالات التي كانت تجري بين القصر، والإنجليز، والوفد، والأحزاب الأخرى.

وخرجت مجلة «الحوادث» اللبنانية بمفاجأة من العيار الثقيل عندما نشرت صورة للقاءٍ تم بين «هيكل» و«خروشوف»، رئيس الاتحاد السوفييتي الأسبق، وذكرت أن «خروشوف» قال لـ«هيكل» في أثناء هذا اللقاء

إنه يعلم أنه يتقاضى مبالغ من المخابرات الأمريكية، وعندما أنكر «هيكل» ذلك، وقال إنه يحصل على هذه المبالغ مقابل مقالات أرسلها لـ«نيويورك تايمز» ولـ«الواشنطن بوست»، رد عليه «خروشوف» ساخرًا: «لا يُعقل أن تقبض مئة ألف دولار على هذه المقالات»!

وتنتقل المعركة إلى ميدان آخر لعله الأهم على الإطلاق، ذلك الميدان الذي يكشف فيه «هيكل» تلك الرسالة التي سماها «الرسالة الوثيقة» والتي تتضمن اعترافًا كاملًا من «مصطفى أمين» على نفسه بالعمالة لصالح الأمريكان، لكنه أيضًا يشير فيها إلى أنه كان يفعل ذلك بحُسن نية، حيث إنه ينقل المعلومات للأمريكان بهدف الحصول على معلومات أهم يبلغها للقيادة المصرية، وهنا يتساءل «هيكل»: (لماذا لا يفسَّر ما كان الأستاذ «مصطفى أمين» يقوله لـ«بروس تايلور أوديل» وغيره ممن كان يتصل بهم باعتباره حوارًا يستهدف الحصول على أخبار؟! يمكن؟ لكن المشكلة أن بعض ما قيل يستعصي تطويعه لهذا التفسير، فعلى سبيل المثال: هل يمكن أن تُخضع أخبارًا من نوع:

- أن الشيوعيين استولوا على كل شيء في مصر خصوصًا في الصحافة، وأن «عبد الناصر» يتصور خطأ أنه يستطيع اعتقالهم في نصف ساعة.
- أن هناك انفجارًا وقع على مدمرة مصرية في ميناء الإسكندرية.
- أن هناك صفقة أسلحة جديدة مع الاتحاد السوفييتي.
- أن قادة القوات المصرية المسلحة يفعلون كذا في يوم كذا.
- أن مصر اتفقت مع الصين على صنع قنبلة ذرية (كانت هناك اتصالات بالفعل بين مصر والصين بشأن التكنولوجيا الذرية).
- أن «جمال عبد الناصر» مريض بالسكر.

- أن الوضع الاقتصادي لمصر ينهار لدرجة أنها تبيع احتياطيها من الذهب.

- أن سيارة عسكرية ضُبطت محملةً بأكثر من ٣٠٠ كجم من الديناميت وأن رقمها ٣٩٠٣٦.

وأن.. وأن.. من كل ما حوته الملفات والأشرطة، ثم جاءت لتؤكده الرسالة الأخيرة التي كتبها الأستاذ «مصطفى أمين» لـ«جمال عبد الناصر»، فضلًا عن المواعيد المحددة كل أسبوع والأسئلة المكتوبة الموجَّهة، والحقائب المطلوب إخراجها، والأموال المطلوب تهريبها إلى الخارج.. إلى آخره... قضية معقدة).

ويروى «مصطفى أمين» الظروف التي كتب فيها هذه الرسالة بقوله: (ساقني القدر في منتصف ليلة سوداء لأدخل «الأوبرج» وكان في استقبالي اللواء «حمزة البسيوني» مدير السجون الحربية وملكها المتوج، والخبير العالمي في شؤون التعذيب، استقبلني ومعه «ميمي» و«ليلي» وهما الكلبان المعدَّان لاستقبال النزلاء، واستمر هذا النوع من التعذيب أحد عشر يومًا، وفي اليوم الثاني عشر أخذوني ليلًا إلى مكتب اللواء «حمزة البسيوني» ووجدته في انتظاري ومعه عدد من ضباط «صلاح نصر» وأمر كبيرهم أن أخلع ملابسي ليرى آثار التعذيب على جسمي! ثم التفتَ إلى «حمزة» قائلًا: لا يا حمزة بك.. أنتم دللتموه جدًّا.. وهنا هوى الشاويش المصاحب لي بالسوط الذي يحمله على صدري بضربة ظللت أتألم منها لمدة عام كامل).

(٤)

أما قرار الإفراج عن «مصطفى أمين»-بعد أن قضى قرابة تسع سنوات خلف القضبان- فله قصة يحكيها الكاتب الكبير «موسى صبري» بقوله:

(بدأتُ الاتصالات بـ«السادات» للإفراج عن «مصطفى أمين» منذ أن تولى الرئاسة، ولكنه كان يجيب إجابات عامة لا توحي بأي شيء، وشارك معي في ذلك الصحفي اللبناني «سعيد فريحة»، وأراد -يقصد «فريحة»- من «هيكل» أن يسهم معنا في ذلك؛ ولكنه رفض، بل لامَ «فريحة» على جهوده، لكني انتهزتُ فرصة وجودي وزوجتي في حفل زفاف كريمة الرئيس «السادات» ومعي «أحمد رجب» وزوجته و«محمود أبو وافية» وزوجته والفنان «عبد الحليم حافظ»، وتحدث كل منّا طالبًا الإفراج عن «مصطفى أمين»، وركزتُ في حديثي على أن حالته الصحية خطيرة، وأنه يعاني من ارتفاع ضغط الدم وجفاف الأوعية الدموية، وقال «أحمد رجب» في عصبية: إذا كان لا بد من سجن إنسان بريء فأرجو أن تأمر بسجني بدلًا من «مصطفى أمين»، وقال « أبو وافية»: «إنك وعدتَ بإنصاف كل مظلوم».. ولم يُعقب الرئيس السادات.

وتابع «موسى» قوله: (في الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالي فوجئتُ بمكالمة تليفونية من الرئيس «السادات»، وقال لي: أنا وقَّعت الآن قرار الإفراج عن «مصطفى أمين».. تستطيع أن تنشره لكن بشرط أن لا يعرف «هيكل» الخبر)!

وجاءت رواية «هيكل» لتلك الواقعة مخالفة تمامًا لما قاله «موسى صبري» فقد قال: (سألني «السادات» على غير انتظار أو توقُّع: ما رأيك في الإفراج عن «مصطفى أمين»؟ ألم تطلب مني أكثر من مرة أن أُفرج عنه؟ إنهم يطلبونه مع الجواسيس وأنا أريد أن أجاملهم فيه.. وتساءلت مَن هم؟ قال: كثيرون.. الأمير سلطان وكمال أدهم، الوسيط السعودي لدى المخابرات الأمريكية).

وتابع «هيكل»: (سكت «السادات» لحظة ثم استطرد: ولماذا لا أجامل الأمريكان فيه؟! وقلت: الأمر لك بالطبع، وإن كنت أخشى من

الإفراج عنه في هذا الإطار الذي يعد إساءة إليه.. لماذا لا تجعل فاصل أسبوع أو أسبوعين بين الإفراج عنه والإفراج عن كل هؤلاء الذين طلبتهم إسرائيل وطلبهم «هنري كسينجر»؟ وأضفتُ: إنني جئتُ إليك الآن وفي نيتي أن أنقل إليك رسالة من «علي أمين» يرجوك فيها الإفراج عن توأمه وهو على استعداد أن يأخذه من باب السجن إلى باب طائرة تذهب بهما إلى أي مكان خارج مصر.. فقال «السادات» بسرعة: «عال.. ياخدوه.. ويغوروا»، ثم نظر إليَّ بنصف ابتسامة ونصف عين، وقال: «أنت تدَّعي أنك تفهم في السياسة وأنا أقول لك العكس.. لو أنك تفهم في السياسة لَوافقتني في ما قلت، فمن الأفضل الإفراج عن مصطفى ضمن هذه الصفقة حتى لا يتجاسر يومًا ويفتح فمه، وإذا فتحه فنقدر نضربه بـ...).

(٥)

وننتقل إلى الشهود على تلك المعركة التاريخية، فلكلٍّ منهم رأي، فالكاتب الصحفي «صلاح منتصر» عرض فكرة أن يتم التصالح بين «مصطفى أمين» و«هيكل» فكان يرى أن الظروف تغيرت وسكنت المعارك، وكان «هيكل» جالسًا وقت طرح هذه الفكرة لكنه رفض التعليق، أما «مصطفى أمين» ففي حواره مع الكاتبة الصحفية «نوال مصطفى» كان كلامه قاطعًا فقال: (شرطي الوحيد لمصافحة «هيكل» أن يعترف بأنه افترى عليَّ، وأنا ما قاله ليس صحيحًا).

أما الكاتب الصحفي «عادل حمودة» فيقول: «كنت في البداية متحمسًا لفكرة التصالح لكن بعد أن أمعنت النظر وجدتُ أن القضية ليست قضية شخصية، وليست صراعًا أشبه بصراع الديناصورات أو الحيتان الهائجة،

القضية قضية اختلافات في رؤية النظام وطبيعته، وتوجهاته، ونوعية القوى التي يجب أن تديره أو تسيطر عليه، ومهما كانت المواقف الشخصية فإن المواقف السياسية هي التي تغلب وتحسم في النهاية».

لكن كان هناك سؤال جوهري في تلك المعركة وهو: هل كان «مصطفى أمين» جاسوسًا؟ وهل كان «هيكل» وراء ما حدث له؟

ذهبتُ بهذا السؤال إلى الكاتب الصحفي «محمود فوزي» الذي جلس مع الاثنين وكتب كتابًا عن كلٍّ منهما، وأجاب: («مصطفى أمين» لم يكن جاسوسًا على الإطلاق، ولكنه كان على خلاف مع «عبد الناصر» سببه الوشاية من بعض المقربين من السياسيين والصحفيين، لكني أستبعد أن يكون «هيكل» وراء ما حدث له؛ لأنها ليست هذه أخلاق «هيكل»).

obeikandl.com

١٩٨٥

القنبلة

(١)

صدر قرار سرِّي؛ لكن الجميع كان يعلمه!

القرار: منع ذكر اسم الفنان «عادل إمام» في كافة إصدارات «دار أخبار اليوم».

متخذ القرار: «إبراهيم سِعدة» رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير «أخبار اليوم».

السبب: كتب «إبراهيم سِعدة» سلسلة مقالات بعنوان «القنبلة»، وطلب من «عادل إمام» أن يقرأ السلسلة بأكملها كي يحوِّلها إلى عمل سينمائي، لكن الزعيم رفض بشدة، وبرر رفضه قائلًا: «إن هذا لا يصلح للسينما».

وغضب «إبراهيم سِعدة» بشدة، وشنت «أخبار اليوم» هجومًا عنيفًا على «عادل إمام» باعتباره أخطأ في حق أكبر رأس في المؤسسة.

ولم يعد ممكنًا أن يقوم صحفي في «أخبار اليوم» بإجراء حوار مع «عادل إمام» أو الحديث بالإيجاب عن أفلامه أو مدح مسرحياته أو الإشادة بمسلسلاته.

obeikandl.com

لكن الأكبر من ذلك أن صفحة التليفزيون كانت تحذف اسم «عادل إمام» من أعماله، فتجد فيلم «المولد» بطولة «عبد الله فرغلي ويسرا»، وفيلم «طيور الظلام» بطولة «رياض الخولي وأحمد راتب»، ومسرحية «الواد سيد الشغال» بطولة «عمر الحريري، ومشيرة إسماعيل»!

ولم يتم الاكتفاء بذلك...

فقد صدرت أوامر السيد رئيس مجلس الإدارة بالتنبيه على كُتاب المقالات بعدم ذكر اسم «عادل إمام»، ومَن يخالف لا يُنشر مقاله.

وبعد سنوات حين صدرت مجلة «أخبار النجوم» شنت حملة كبرى ضد «عادل إمام»، وكان غلاف المجلة يقول: «هل انتهت ظاهرة عادل إمام؟».

وبالطبع كان الجواب جاهزًا قبل طرح السؤال، فقد اعتبرته المجلة الفنية ظاهرة انتهت، واستعانت بكل مَن يهاجمه من القراء، والنقاد، والصحفيين.

(٢)

وفي إحدى المناسبات العامة التقى الأستاذ «محمد حسنين هيكل» النجم «عادل إمام» والكاتب الصحفي «إبراهيم سِعدة».

وفي لحظة صفاء باح «إبراهيم سِعدة» لـ«هيكل» بالغضب المكتوم تجاه «عادل إمام»، ونظر «هيكل» إلى كلٍّ من «عادل» و«إبراهيم» ثم سأل عن سر الغضب فحكى «سِعدة» قصة «القنبلة» وكيف أن «عادل» رفض الفكرة، وبسلاسته المعهودة رد «هيكل»: «دي وجهة نظر فنان كبير، ولا مجال لمناقشة وجهة نظر فنية».

فصمتَ «سِعدة» وتهللت أسارير «عادل إمام»-على حد تعبير «أكرم السعدني» الذي روى الواقعة- وأُغلق النقاش إلى الأبد، لكن لم تهدأ المعركة.

وفي هذا التوقيت كانت السينمات تعرض فيلم «الإنس والجن» لـ«عادل إمام»، وهو أول فيلم يتم تطبيق الحظر عليه، فلم يأتِ ذكره في «أخبار اليوم».

وظل الوضع هكذا لمدة تقترب من عشرين عامًا، ولم يجرؤ أحد على مخالفة القرار، وحتى إن خالفه، فلن يعلم أحد؛ لأن الجريدة لن تنشر مقاله.

ربما الاستثناء الوحيد من تلك القاعدة كان الكاتب الكبير «أحمد رجب» الذي خرق حظر النشر، وحملة التشويه، والمقاطعة، وكتب مشيدًا بالزعيم «عادل إمام» في «نص كلمة».

(٣)

وفي تلك الأثناء توالت الأحداث في دول الجوار، ففي السودان حدث انقلاب وتمت الإطاحة بالرئيس «جعفر النميري» خلال زيارته لمصر!

وفي ليبيا قرر «معمر القذافي» طرد ثلاثين ألف تونسي، وتم قطع العلاقات الدبلوماسية بين تونس وليبيا.

وكانت العلاقات المصرية الليبية مهددة بنفس المصير، وذلك بعد أن خطفت جماعة مسلحة طائرة مصرية في أثناء رحلتها من أثينا إلى مالطة، وقتلت ثلاثة من ركاب الطائرة.

واتهمت السلطات المصرية نظيرتها الليبية بأنها وراء الحادثة، وظلت تلك الحادثة هي الأبرز في الصحف حتى تم تحرير الرهائن بعد أن هاجمت القوات الخاصة المصرية المُسلحين.

(٤)

وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من أغسطس نشرت مجلة «صباح الخير» الحلقة الرابعة من سلسة حلقات بعنوان: «يوسف إدريس يتذكر: صحافة عبد الناصر والسادات».

وفي داخل العدد أفردت المجلة ست صفحات لحوار طويل أجراه الكاتب الصحفي «رشاد كامل» مع الأديب الكبير «يوسف إدريس»، وقد سأله «رشاد» عن سر الخلاف الكبير بين «السادات» و«هيكل»، وأجاب «إدريس» قائلًا: («هيكل» كان لُقمة كبيرة على «السادات»، ولما تيجي تحسبها بأن نضع كلًّا من «السادات» و«هيكل» وحدهما في غرفة واحدة، تأكد أن «هيكل» سيأكل «السادات» بمنطقه المتكامل، ثم إن الأمور تغيرت فـ«السادات» صار رئيسًا للجمهورية ثم أنجز حرب أكتوبر وأصبح كبيرًا في حق نفسه، ومحتاجًا إل أحجام أقل من «هيكل» بكثير، وفي نفس الوقت «هيكل» لم يكن لديه الاستعداد أن يُحجِّم أو يُصغِّر نفسه!).

وروى «إدريس» الطريقة التي تم تعيينه بها في جريدة «الجمهورية» قائلًا: (في إحدى الفترات جاءت هوجة تعيين الكتاب والأدباء في «الجمهورية»، وأذكر في أحد الأيام وكنت أصعد في الأسانسير وتصادف أن كان معي في نفس الأسانسير «صلاح سالم»، وسألني: أنت عايز تتعين

في «الجمهورية» بكام؟ فقلت: عايز مئة جنيه مرتب.. وفوجئت بالرجل يقول لي ببساطة: خلاص.. أنا موافق).

واكتشف «يوسف إدريس» أن هذا المبلغ الذي طلبه هو بالضبط نصف ما يتقاضاه زملاؤه في الجريدة!

وذكر «إدريس» واقعة طريفة حدثت معه حين كان كاتبًا في «الجمهورية»، وفي أحد الأيام كتب مقالًا بعنوان «الحرية الحقيقية هي أكل العيش»، وذلك تعليقًا على خطاب للرئيس «جمال عبد الناصر» ذكر فيه نفس الجملة، ولكنه بعد أن سلَّم المقال الذي ينتقد فيه كلام الرئيس، فوجئ بالمقال في اليوم التالي يحمل معنى عكس ما كتبه، وبدلًا من أن ينتقد الرئيس صار يؤيده، ويدافع عنه!

وعندما سأل «يوسف إدريس» عما جرى علم أن رئيس التحرير قام بإعادة ترتيب المقال، وقام بعمل مونتاج في غاية الذكاء -على حد تعبير «إدريس»- بحيث أصبح المقال تأييدًا لخطاب الرئيس في عيد العمال.

لكن أخطر ما قاله الدكتور «يوسف إدريس» في حواراته مع «رشاد كامل» قوله: (إن أكبر جهاز شعبي من أجهزة الدولة عانى في عصر «عبد الناصر» و«السادات» و«مبارك» هو الصحافة، وستظل صحافتنا تعاني لفترة طويلة؛ لأنها «اتمرمغت» في الوحل، ولم يُترك صحفي واحد شريف أو غير شريف إلا وتم إذلاله، وإهانته، واضطهاده، ولم تكن الفرصة متاحة أبدًا للصحفي النابغ، وإنما كانت الفرصة متاحة باستمرار للصحفي «الذيل» والعميل).

١٩٨٦

البريء

(١)

- حظر التجول في القاهرة نتيجة أعمال شغب لبعض قوات الأمن المركزي

- بيان خطير للرئيس مبارك يؤكد فيه «لا تهاون مع مَن يتورط في خيانة الوطن»

- شائعات مغرضة حول مد فترة تجنيد قوات الشرطة تفجِّر موجة من العنف والتدمير

- عناصر التخريب تُشعل النار في الفنادق والمنشآت السياحية والاقتصادية بالهرم والمعادي

- الشغب يمتد إلى ٦ محافظات.. والعناصر المخربة تقتحم سجن طرة وتطلق سراح بعض المسجونين

هكذا خرجت مانشيتات جريدة «الأهرام» في صباح يوم الخميس ٢٧ فبراير.

لكن قبل يومين، وتحديدًا في السادسة من مساء يوم الثلاثاء ٢٥ فبراير،

obeikandi.com

قام ثمانية آلاف جندي بمظاهرات احتجاجية بعد أن ترددت بينهم أنباء تفيد بأنه تقرر مد فترة التجنيد الإجباري لأفراد الأمن المركزي من ثلاث سنوات إلى أربع سنوات.

وخرج الآلاف من الجنود الغاضبين من معسكرين للأمن المركزي في منطقة «الأهرامات مندفعين بخوذاتهم، ورشاشاتهم، وبنادقهم في مظاهرات مسلحة إلى فندق «الجولي فيل» وهو واحد من أحدث وأضخم فنادق القاهرة، ويقع في مواجهة أحد المعسكرين اللذين بدأ منهما التحرك مباشرة.

وحطم الجنود الواجهات الزجاجية ثم اقتحموا الفندق، وبدؤوا يحرقون كل ما فيه، كما قاموا بإحراق فندق «هوليداي سفنكس»، ومبنى قسم شرطة الهرم، وفندق «ميناهاوس»، وبعض المحلات التجارية الكبيرة في المنطقة.

وخلال ساعات استطاع الجنود احتلال منطقة الهرم بأكملها بما في ذلك مداخل طريق الإسكندرية الصحراوي، وطريق الفيوم، وترعة المنصورية.

(٢)

وفي الثالثة من صباح الأربعاء ٢٦ فبراير أُعلنت حالة الطوارئ، وتم فرض حظر التجول في تلك المنطقة.

وفي نحو السادسة صباحًا تم استدعاء الجيش، وانتشرت مدرعاته، وحاصرت جنود الأمن المركزي، وسيطرت على الأوضاع.

لكن في الساعات الأولى من صباح الأربعاء، تطورت الأحداث،

وامتدت إلى ستة معسكرات مختلفة من الجمهورية (القاهرة، والجيزة، والقليوبية، وسوهاج، وأسيوط، والإسماعيلية).

وتعالت أصوات اشتباكات الرصاص مع قوات الجيش التي كُلِّفت بسحب السلاح من جنود الأمن المركزي، ووقعت أول هذه الأحداث في معسكر الهايكستب القريب من مطار القاهرة.

وفي الثامنة والنصف تجمهر جنود الأمن المركزي في معسكر لهم يقع في شارع جسر السويس، وحين وصلت القوات المسلحة إلى المعسكر اشتبك معهم الجنود، وتحول الاشتباك إلى مطاردة في الشوارع الجانبية المتفرعة من جسر السويس، وتم إغلاق شارع جسر السويس وتعزيز قوات الجيش.

وفي الدرّاسة، حيث يقع معسكر ضخم لقوات الأمن المركزي، تبادل الجنود المحتشدون النار مع قوات الجيش، ولجأ بعض جنود الأمن المركزي إلى البيوت المحيطة بالمعسكر ومنطقة المقابر بعد نفاد ذخيرتهم.

أما في معسكر شبرا فقد رفض الجنود الاستسلام للجيش وانتشروا في المنطقة المحيطة بهم، وحاولوا تحطيم أكبر محطة للكهرباء في القاهرة.

ويعد تحرك الأمن المركزي في منطقة طرة، أخطر التحركات جميعًا، ففي أثناء محاولة الجيش استلام المعسكر واجههم الجنود بإطلاق النار، وبدأت طائرات الجيش الهليكوبتر بقذفهم بالرصاص.

وخرج جنود المعسكر بالآلاف فارِّين إلى الشوارع حاملين معهم أسلحتهم، فتم إعلان حظر التجول في كل مناطق العاصمة، وتم تحذير المواطنين من البقاء في شوارع المدينة بعد ساعتين من قرار الحظر.

كان الوضع خارج القاهرة أقل حدّة، حيث انحصرت انتفاضة الجنود في القليوبية والإسماعيلية وسوهاج داخل المعسكرات، واستطاعت

قوات الجيش أن تحاصرهم وتنزع أسلحتهم.

وكان الاستثناء الوحيد في أسيوط حيث كانت الأحداث أشد عنفًا، ولكنّ «زكي بدر» محافظ أسيوط، وقتها، كان أكثر عنفًا، فتم قمع الجنود بجميع الوسائل، وإحكام السيطرة عليهم.

ونتيجة تلك الأحداث أصدر الرئيس «مبارك» قرارًا بإقالة اللواء «أحمد رشدي» وزير الداخلية، وتعيين «زكي بدر» بدلًا منه.

(٣)

المدهش أنه في هذا التوقيت كان السينمات تعرض فيلم «البريء» للمخرج «عاطف الطيب»، والذي كتبه «وحيد حامد» قبل تلك الأحداث، وقام ببطولته «أحمد زكي» ومعه «محمود عبد العزيز وصلاح قابيل وممدوح عبد العليم».

وكان إهداء الفيلم «إلى عشاق الحرية والعدالة في كل زمان ومكان»؛ لكن الرقابة لم ترضَ عن الفيلم، فقامت بحذف بعض المشاهد منه، خوفًا من أن يتسبب الفيلم في إثارة تعاطف الناس مع جنود الأمن المركزي.

وفي اليوم الذي حرق فيه جنود الأمن المركزي الملاهي الليلية بشارع الهرم، صدر الديوان الأول للشاعر «بهاء جاهين» وسمّاه «الرقص في زحمة المرور».

ويومها ربط «صلاح جاهين» في كاريكاتيره بجريدة «الأهرام» بين أحداث شارع الهرم، واسم ديوان ابنه «بهاء»، وقال ما معناه: «بعد أحداث الشغب أين يرقص الناس، لا بد أن يرقصوا في زحمة المرور».

وفوجئ «جاهين» بحذف اسم «بهاء» من الكاريكاتير على يد

المسؤول عن الديسك المركزي -وكان وقتها الصحفي «مرسي عطا الله» الذي صار فيما بعد رئيس مجلس إدارة «الأهرام»- ويومها علَّق «جاهين» على منتقديه أنه يروِّج لديوان ابنه قائلًا: «والله يا جماعة أنا لو شفت إن الديوان ده لواحد غير ابني كنت كتبت نفس التعليق واسم المؤلف».

ولم تمر تلك الحادثة مرور الكرام بل تركت أثرًا عميقًا داخل «جاهين»، خصوصًا أنه في ذات التوقيت قام المسؤولون عن المسرح القومي بسحب مسرحيته «إيزيس» التي كانت تحقق أعلى إيرادات في تاريخ القطاع العام ليضعوا بدلًا منها مسرحية أخرى.

وفي ليلة ١٦ من أبريل، أغارت القوات الجوية الأمريكية على ليبيا، وسقط مئات المدنيين، ودخل «صلاح جاهين» غيبوبة الموت، ورحل بعد خمسة أيام فقط من دخوله المستشفى.

(٤)

وعاد «محمد حسنين هيكل» إلى الكتابة في الصحف المصرية بعد سنوات طويلة من الغياب، لكنه لم يعد إلى «الأهرام» وإنما إلى «أخبار اليوم» بناءً على دعوة من رئيس تحريرها «إبراهيم سِعدة».

وبدأ «هيكل» سلسلة مقالاته بمقالين متتاليين بعنوان «صُنع القرار السياسي في مصر»، واستهلَّ مقاله الأول قائلًا: («تكتب أو لا تكتب؟!» سؤال كان مطروحًا عليَّ طوال الأسابيع الأخيرة، يليه مباشرة سؤال ثانٍ: «وإذا كتبت فمن أين تبدأ؟!».. ولم أكن متأكدًا من الجواب عن السؤال الأول، ولم يكن لديَّ شك في الجواب عن السؤال الثاني، فقد كان اختياري للموضوع الذي قدرت أن أبدأ به واضحًا في تفكيري وشبه محدد: «عملية صُنع القرار السياسي في مصر»!).

ولم تستمر مقالات «هيكل» في «أخبار اليوم» سوى أسابيع معدودة، وسيقت أسباب كثيرة لإيقاف تلك المقالات؛ وقال البعض إن استكتاب «هيكل» في «أخبار اليوم» أغضب «مصطفى أمين»، بينما أكد البعض الآخر أن المقالات أغضبت الرئيس!

وفي العام التالي ظهرت قوائم الإعدام، وشغلت الرأي العام!

obeikandl.com

١٩٨٧

خطة اغتيال وزير الداخلية

(١)

خرجت مجلة «روزاليوسف» بغلاف باللون الأحمر مكتوب عليه:

قوائم الإعدام:

سياسيون..

صحفيون..

فنانون..

أطباء تجميل وأمراض نساء

كان هذا الغلاف صادمًا، ومُدهشًا للقراء؛ لكنه لم يكن مجرد غلاف عابر، ففي هذا العام خرج أكثر من غلاف جريء، بعناوين قوية، وأفكار لامعة، فقد كان الإرهاب مسيطرًا، والكل مهدَّد، وهناك محاولات لاغتيال سياسيين وفنانين وصحفيين.

لكن «روزاليوسف» لم تتراجع في معركتها ضد الإرهاب، وظلت على عهدها بالأغلفة الجريئة، ففي شهر مايو كان أحد الأغلفة يحمل عنوان:

- **محاولة اغتيال أبو باشا**

ثم تلاه غلاف آخر في نفس الشهر بعنوان:

obeikandl.com

- **خطة اغتيال وزير الداخلية»**

وعنوان آخر يقول: «**متطرفون يحكمون السجون**»، وتصريح خاص للنجم «عادل إمام» يقول: «كلنا إرهابيون».

كانت «روزاليوسف» في هذا العام تضرب بقوة مهنية لافتة، ففي نوفمبر خرج غلاف المجلة يقول: «عفوًا فضيلة الإمام الأكبر.. أين دور الأزهر في مواجهة الإرهاب؟».

وفي ظل موجة الإرهاب السائدة رسم الفنان «حجازي» كاريكاتيرًا، جاء فيه: «الأمن مستقر والحمد لله، بس شوف لنا مين انضرب بالرصاص النهارده»!

(٢)

وفي تلك الأثناء خرجت الجماهير من البيوت، وجاءت من كل حدب وصوب، بعضهم بالسيارات وأغلبهم داخل الأوتوبيسات ومن أغلب المحافظات، وبعضهم أصرّ على أن يأتي سائرًا على الأقدام، والبعض اصطحب زوجته، والبعض اكتفى بأبنائه، والبعض فضَّل أن يكون بصحبة أصدقائه، والبعض أراد أن يذهب بمفرده حتى لا يرى رفاقُه دموعَه.

كل مشجع ذهب إلى الاستاد كان يحمل ذكرى فرحة حملها له «محمود الخطيب»، فخلال ٢٦٦ مباراة لعبها أحرز ١٥٤ هدفًا خلف كل منها قصة وذكرى.

لم يكن في يوم اعتزاله موضع لقدم، فالجماهير سكنت كل شبر من مساحة استاد القاهرة، وافترش الآلاف السلالم الفاصلة بين المدرجات،

ونزل بعضهم إلى أرضية الملعب، ولم يتركوا أعمدة الإنارة بل وقفوا فوقها، وصار التقاط الأنفاس يحتاج إلى جهد.

وجاءت لحظة النهاية، وبكى مئة وعشرون ألف مشجع كانت قد امتلأت بهم جنبات استاد القاهرة، وتساقطت الدموع من الملايين الذين تابعوا الاحتفال عبر شاشة التليفزيون.

كان مشهدًا مؤثرًا وتغمره مشاعر الحب والتقدير؛ لكنه حاول أن يتماسك ويَثبت ويهدأ فأمسك بالميكروفون وقبل أن ينطق بكلمة واحدة هتف ١٢٠ ألف مشجع في لحظة واحدة: «لا يا بيبو.. لا يا بيبو».

فانهمرت دموعه ولم يستطع أن يقول سوى كلمتين فقط ورددهما أربع مرات: «ألف شكر.. ألف شكر.. ألف شكر.. ألف شكر».

هكذا جاء مشهد اعتزال محمود الخطيب.

(٣)

ونشرت جريدة «الأهالي» عدة صور فوتوغرافية التقطها مصور هاوٍ خلسةً لصاحب شركات «السعد» في أثناء اجتماعاته مع الكاتب الكبير «أنيس منصور».

ولم يستطع «أنيس منصور» أن يكذِّب صلته بالرجل، كما أنه لم يقل شيئًا عن سر اجتماعه به، وانتشرت نكتة بين الصحفيين تقول: «إنه كان يدعو السعد لزيارة إسرائيل».

وكان «الريان» قبل اعتقاله يحيط نفسه بحاشية تضم مجموعة من الإعلاميين والصحفيين الذين كانوا ينطقون بلسانه، وينظِّمون له

حملات الدعاية، والإعلانات التي ساعدته على التغرير بعشرات الألوف من المواطنين، وعرف أنه كان يغدق على الصحفيين من أموال ضحاياه من المودعين.

كما ترددت حكايات كثيرة عن كشوف البركة (الرشاوى) وعن الأسماء التي تضمنتها، وكان من بينها عدد من كبار الصحفيين بالإضافة إلى بعض كبار المسؤولين.

وأكثر من ذلك، أراد «الريان» أن يفرض سيطرته على نقابة الصحفيين عندما عرض عليها تقديم قرض من إحدى شركاته قيمته مليون جنيه من دون فوائد لحل مشكلة الإسكان لشباب الصحفيين.

وقام أحد الصحفيين من أصدقاء «الريان» بتوزيع استمارات تحمل اسم «الريان» على الصحفيين الذين أبدوا استعدادهم للحصول على هذا القرض، وكان طبيعيًّا أن يتخطّف بعض الصحفيين الشبان هذه الاستمارات بعد أن وجدوا فيها الحل السعيد لمشكلة الإسكان -على حد تعبير الكاتب الصحفي «جميل عارف»- ولم يكن أغلب الصحفيين يعلمون ما يخفيه «الريان».

لكنّ هناك من التفت إلى اللعبة التي تدبَّر في الخفاء، وكشف خبايا ما يدور في الكواليس، إنه الكاتب الصحفي «جلال عارف» عضو مجلس نقابة الصحفيين الذي كتب في جريدة «الأهالي» محذرًا من «الريان» ومؤكدًا أن الهدف الرئيسي من قرض «الريان» هو السيطرة على الصحافة المصرية، وبمعنى آخر أن يضعها في جيبه.

وهاجم «عارف» أيضًا مجموعة الاتفاقيات التي كان «الريان» قد عقدها مع عدد من المؤسسات الصحفية القومية بعشرات الملايين من الجنيهات مقابل نشر حملاته الإعلانية، ولطباعة الكتب أيضًا.

وفي الخامس من يوليو نشرت جريدة «صوت العرب» تحقيقًا عن آراء بعض الصحفيين حول هذا القرض، وعلَّق «حافظ محمود» أحد مؤسسي نقابة الصحفيين، قائلًا: (إن قبول أموال «الريان» في صورة قرض تكون النقابة بعيدة عنه بالتحايل، سابقة خطيرة؛ لأنه يجوز لو قبلنا المبدأ أن تأتي جهة أخرى أقوى من «الريان» لمنافسته في تقديم مثل هذا القرض؛ لتصبح العملية شراءً نهائيًّا للمهنة والنقابة، ثم ماذا نفعل لو ثبت أن «الريان» له مواقف غير مشروعة من ناحية تجارته في العُملة أو غيرها، بالطبع سيسيء ذلك إلى سُمعة النقابة، وهذا أمر مرفوض).

وفي العام التالي حدثت مفاجأة غير منتظَرة!

obeikandl.com

١٩٨٨

بطَّلي أحلام

(١)

فجأة صدر قرار من المدعي العام الاشتراكي بعمل جرد ومراجعة لحسابات شركات «الريان».

وكشفت التحقيقات عن تورط غالبية المؤسسات الصحفية، واضطرت بعض المؤسسات لتسوية حساباتها التي كانت مفتوحة مع شركات «الريان»، وكان عليها أن ترد مبالغ ضخمة بملايين الجنيهات كانت قد دُفعت إليها من هذه الشركات مقدمًا، ولم تُستخدم.

وكان رد هذه الملايين من الجنيهات وتسليمها إلى خزينة جهاز المدعي العام الاشتراكي هو الحل السعيد -على حد تعبير الأستاذ «جميل عارف»- حتى تنقذ نفسها من تهمة التورط في صفقات «الريان».

وتنصَّل من «الريان» كل من ساعده، ووقف معه، وشارك في حملاته الدعائية، وروَّج لأفكاره، ونشر إعلاناته، واستضافه في مكتبه، ورحَّب به في صحيفته.

(٢)

وفي أحد أيام شهر أكتوبر كان «نجيب محفوظ» نائمًا في سُبات عميق وقت الظهيرة كعادته، ودخلت زوجته السيدة «عطا الله إبراهيم» حجرة النوم، دون أن تتأكد من أنه مستيقظ، وقالت له بفرحة غامرة:

«نجيب.. أنت فزت بجائزة نوبل».

فرد عليها نجيب محفوظ غير عابئ:

«أنا مش قلت لك تبطّلي أحلام»!

لم يصدِّق «نجيب» للوهلة الأولى أنه أول أديب عربي يفوز بجائزة نوبل، ربما لأنه قبل إعلان فوزه بأيام قالت بعض الصحف العالمية إن الفائز سيكون الأديب «يوسف إدريس»، وقد تسببت تلك الشائعة في فجوة إنسانية بين «نجيب» و«إدريس».

لكن من المؤكد أن «نجيب محفوظ» صدق أنه حصد الجائزة حين سمع بنفسه الخبر في نشرات «الأخبار»، وحين قرأه في الصفحة الأولى من أغلب صحف الكرة الأرضية.

وقد خصصت «الأهرام» نصف صفحتها الأولى لهذا الحدث الجلل، تحت عنوان:

- **نجيب محفوظ يفوز بجائزة نوبل العالمية**

وجاءت عناوين أخرى منها:

- **مبارك يتصل بالأديب الكبير لتهنئته**
- **الجائزة تكريم لمصر وللأدب العربي**

لكن أكثر عنوان كان لافتًا هو قول «نجيب محفوظ»:

- **أتذكر في هذه اللحظة بالعِرفان أساتذتي من كبار الأدباء «طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم»**

وقد خرجت مجلة «الهلال» -التي كان يرأس تحريرها الكاتب الكبير «مصطفى نبيل»- بغلاف لا يحمل سوى صورة «نجيب محفوظ»، وعنوان رئيسي من كلمة واحدة فقط هي:

- **مبروك**

وأفردت المجلة نصف صفحاتها لهذا الحدث، وشارك في الملف الضخم الذي أعدته «الهلال» كبار الأدباء مثل «يحيى حقي، وسهير القلماوي، وألفريد فرج، والدكتور غالي شكري»، وغيرهم كثير.

لكن المدهش أن بعض الجماعات المُنتسبة إلى الأدب والثقافة وبعض الصحف، هاجمت نجيب محفوظ باعتباره وافق على جائزة صهيونية!

(٣)

وفي يوم الثلاثاء السادس من ديسمبر، أرسل «نجيب» ابنتيه إلى استوكهولم لاستلام جائزة نوبل، وألقى الكاتب الصحفي «محمد سلماوي» كلمة «محفوظ» باللغة الفرنسية نيابةً عنه.

وفي هذا العام رحل الكاتب الكبير «جلال الدين الحمامصي» الذي كان واحدًا من نبلاء صاحبة الجلالة، الذين صنعوا مجدًا، وتاريخًا مشرفًا، فقبل ثورة يوليو كان عضوًا بمجلس النواب، وفي ذات الوقت شارك في إعداد «الكتاب الأسود» الذي قدمه «مكرم عبيد» كدليل على فساد حزب الوفد، فصدر قرار باعتقال «الحمامصي».

وحين قامت ثورة يوليو آمن بها، وتحمس لها، ودافع عن مبادئها، واقترب من «جمال عبد الناصر»، واختاره لرئاسة تحرير جريدة «الجمهورية»، ثم كلّفه بتأسيس وكالة أنباء الشرق الأوسط، وبعدها ذهب لجريدة «الأخبار»، ولكن استقلالية «الحمامصي» واعتداده بنفسه، ورفضه لقرار تأميم الصحف جعل الرئيس يُصدر قرارًا بفصله من «أخبار اليوم»، بل ويوقِّع على قرار اعتقاله في ديسمبر ١٩٦٠.

وقبل سنوات قليلة من رحيل «جلال الدين الحمامصي» اتصل به مكتب رئيس الجمهورية.

ولم ينبهر «الحمامصي» باتصال «حسني مبارك»، واستغل المكالمة، وطالب «مبارك» بالديموقراطية، وإطلاق الحريات العامة، وحرية الصحافة، لكن الكلام لم يَرُق للرئيس، فلم يعاود «مبارك» الاتصال مرة أخرى!

obeikandl.com

١٩٨٩

سر أبو غزالة

(١)

في صباح يوم السبت الخامس عشر من أبريل، قرر الرئيس «محمد حسني مبارك» إقالة المشير «محمد عبد الحليم أبو غزالة» من منصبه كوزير للدفاع والإنتاج الحربي، ومنحه منصبًا شرفيًّا بلا صلاحيات، وتعيين الفريق أول «يوسف صبري أبو طالب» خلفًا له.

كان ذلك القرار بمثابة صدمة لكثيرين، وتوقع البعض أن هناك ثلاثة أسباب لإقالته:

الأول، شعبية «أبو غزالة» الكبيرة بين الجنود والضباط داخل الجيش، وحب الشعب المصري له، حتى إن البعض رشحه لخلافة مبارك على كرسي الحكم.

الثاني، قال المراقبون الغربيون إن سبب إقالة «أبو غزالة» هو تهريب أجزاء تُستخدم في صناعة الصواريخ من الولايات المتحدة مخالفًا بذلك قوانين حظر التصدير.

الثالث، أنه أسَّس برنامجًا سريًّا لصناعة الصواريخ الباليستية بالتعاون مع الأرجنتين وبدعم عراقي لمشروع برنامج صاروخ بدر

obeikandl.com

٢٠٠٠ «كوندور٢»، وكان هذا التطوير يُشكل خطرًا كبيرًا على العدو الإسرائيلي، وبالتالي تدخلت أمريكا لوقفه، ووقف من خلفه!

لكن الصحف الحكومية لم تذكر شيئًا عن تلك الأسباب، ولم تناقش أسباب إقالة وزير الدفاع، بل اكتفت «الأهرام» و«الأخبار» و«الجمهورية» بنشر خبر يفيد بأنه تم تعيين «عبد الحليم أبو غزالة» مساعدًا لرئيس الجمهورية، وتعيين «يوسف أبوطالب» وزيرًا للدفاع.

(٢)

وجاء قرار إقالة «أبو غزالة» بعد أقل من شهر من رفع العلم المصري على طابا؛ لتعود آخر بقعة من أرض سيناء، ويتم تحرير الأرض المصرية كاملة.

وتصدرت الصفحة الأولى لكل الصحف الحكومية صورة «حسني مبارك» وهو يرفع علم مصر على طابا.

وقد بدأت القصة حين وقَّعت مصر مع العدو الإسرائيلي اتفاقًا يقضي بحل الخلاف عن طريق التفاوض؛ فإن لم تصل إلى حل يكون عن طريق التوفيق تذهب إلى التحكيم.

وقررت مصر الذهاب إلى التحكيم الدولي، وصدر قرار بتشكيل اللجنة القومية لطابا برئاسة «عصمت عبد المجيد»، وعضوية ٢٤ خبيرًا، منهم تسعة من خبراء القانون، واثنان من علماء الجغرافيا والتاريخ، وخمسة من كبار الدبلوماسيين بوزارة الخارجية، وثمانية من العسكريين وخبراء المساحة العسكرية.

وبعد مساجلات عُقدت جلسة تاريخية في جنيف، برئاسة القاضي

السويدي «جونار لاجرجرين» وصدر الحكم بأحقية مصر في طابا بأغلبية أربعة أصوات، واعتراض وحيد من القاضية الإسرائيلية.

وجاء الحكم في ٢٣٠ صفحة، وجاء منطوق الحكم في تأكيد أن «طابا» بأكملها وبما عليها من منشآت سياحية ومدنية أرض مصرية خالصة.

(٣)

في هذا التوقيت ودَّعت الصحافة المصرية اثنين من الكبار هما الكاتب الصحفي «أحمد الصاوي محمد» أول مصري يرأس تحرير جريدة «الأهرام»، والفنان «عبد المنعم رخا» أول رسام كاريكاتير في تاريخ الصحافة المصرية.

وفي مساء يوم السابع عشر من نوفمبر أُقيمت مباراة الحسم بين مصر والجزائر.

منتخب واحد فقط منهما سيصعد إلى كأس العالم، وأقيمت المباراة على استاد القاهرة بحضور ١٢٠ ألف مشجع، وبعد أربع دقائق فقط من بداية المباراة أحرز حسام حسن الهدف الذي وصل بمنتخب مصر إلى كأس العالم ١٩٩٠ في إيطاليا.

وفي اليوم التالي احتلت نصف الصفحة الأولى من جريدة «الأهرام» صورة كبيرة للاعبي منتخب مصر، يسبقها عنوان كبير يقول:

– مبروك.. مصر تصعد إلى كأس العالم في كرة القدم بعد غياب ٥٦ سنة

(٤)

وفي الساعة الثامنة من صباح أحد أيام شهر فبراير رن جرس الهاتف في منزل الكاتب الصحفي «محمد العزبي»، وأبلغه المُتصل بضرورة حضوره فورًا إلى مقر جريدة «الجمهورية».

وحين وصل «العزبي» إلى الجريدة علم بقرار اختياره رئيسًا لتحرير جريدة «إيجبشيان جازيت» كأول رئيس تحرير لها من الصحفيين المصريين، وثالث مصري يتولى رئاسة تحريرها بعد اثنين من أساتذة اللغة الإنجليزية بالجامعات المصرية.

وأعاد «العزبي» للجريدة العريقة -التي كانت يتدرب بها الأستاذ «محمد حسنين هيكل» في الأربعينيات- شبابها، وروحها، ورونقها، وبهاءها، واستكتب فيها عددًا من السفراء المصريين في الخارج، والسفراء الأجانب في مصر، بالإضافة إلى كبار الكتاب، والفنانين، والسياسيين، وكان شرطه أن لا يكتب بها إلا من يجيد الكتابة باللغة الإنجليزية، ولن تتم عملية الترجمة الصحفية لمقال يتم كتابته باللغة العربية.

تبدل حال الصحيفة مع «العزبي» فصارت من جريدة تعتمد على المترجمين فقط إلى صحيفة تنافس الصحف الأخرى في «الأخبار»، والانفرادات، والتحقيقات، والحوارات، ومنح الشباب أجندة مصادره، وساعدهم في إجراء حوارات سياسية على أعلى مستوى مع السفراء والوزراء والسياسيين وغيرهم، ونقلهم من مترجمين جيدين إلى صحفيين أكفاء.

وتتويجًا لجهد «محمد العزبي» اختاره الأستاذ «مصطفى أمين» في عموده «فكرة» ليحصل على جائزته الصحفية لما قام به من جهود لتطوير جريدة «إيجبشيان جازيت».